

كُلْمَة

يَسِّرْ الْجَنْدِي

BR
محمد يونس

تقديم:

د. عبد المعطي بيومي
عميد كلية أصول الدين
جامعة الأزهر

يجد القارئ في هذا الكتاب صرخة ضد التكفير الجزاوي، وما يتربّع عليه من إهانة
الدم والكرامة الإنسانية.

وقد أورد الكاتب عدة نماذج من تاريخنا الفكري اضطهد فيها بعض المفكرين وقتل
بعضهم نتيجة لبعض أفكاره التي رأى فيها خصومهم سبباً لاضطهادهم في الظاهر، ولكن
الأسباب الحقيقية كانت تكمن وراء أغراض سياسية استلزمت اضطهاد هؤلاء المفكرين،
وتصفية بعضهم، فيما يعد استغلالاً مبكراً للدين في خدمة السياسة.

وبطبيعة الحال فإننا نختلف مع المؤلف في بعض ما أورده وتتفق معه في البعض الآخر.
فنحن نختلف معه في طريقة تناوله لحد الردة، وموقفه من الحسبة ودورها في حماية
المجتمع الإسلامي كما أنها لا نرى أن الفكر الإسلامي كان حكراً على الخلاف أو نمطاً أحادياً
في التفكير، بل كان أرضاً خصبة للتعددية، والرأي والرأي الآخر، ونحن هنا لا نظلمه لحساب
التاريخ وصراعاته، ولا ننصف التاريخ لحسابه، كما أنها نتفق مع المؤلف ودعوته إلى ضرورة
الحوار والتسامح والقبول بالآخر والتعامل معه من منطق الجدال بالتي هي أحسن، ومعاول
الوصول إلى جسور مشتركة، دون اضطهاد للرأي الآخر، ودون انفلات على الناس، أو الاقتصار
على الرؤية الواحدة للذات.

كما نتفق معه في ضرورة إحياء تراثنا، وفي هذا التراث -كما يقول- يكمن الكثير من
التفسيرات لما يتضمنه حاضرنا، وما سيؤول إليه مستقبلنا فلا خلاف على القيام بعملية إحياء
علمية مثل هذا التراث لكي تستخدم العناصر الصالحة فيه، ونبني عليها".

كذلك نتفق معه في استنكار موقف قلة تقتصر بتكفير الناس في جرأة تبوّع عنها سماحة
الإسلام، وهم يظنون أنهم يحافظون على الدين وهم في الحقيقة يسيئون إلى الدين وإلى
أنفسهم "يحسبون أنهم يحسنون صنعاً".

ففيما يتعلق بموقفه من حد الردة شَكَّ في عكرمة مولى ابن عباس، مستشهاداً بما ذكره
ابن قتيبة الدنوري في كتابه "المعارف" حيث يقول "روي جرير عن يزيد بن أبي زيد عن عبد
الله بن الحمرث قال: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس وعكرمة موثق على باب كفيف
فقلت: أتفعلون هذا بمولامكم قال: إن هذا يكذب على أبي" ولم يلتفت الكاتب الفاضل إلى أن
ائمة الجرح والتعديل شككوا في هذا النص الذي نقله ابن قتيبة عن جرير عن يزيد عن زياد
عن عبد الله بن الحمرث لأن يزيد بن زياد ضعيف إذ قال صاحب سير أعلام النبلاء تعليقاً
على هذا الجزء الذي أورده ابن قتيبة فقال: يزيد بن أبي زياد ضعيف لا يحتاج بنقله فالخير لا

يصح".

هذا بالإضافة إلى أن أئمة الحديث ضعفوا رجلا آخر يسمى يحيى البكاء إذ روى خبراً عن كذب عكرمة... قال أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزار عن يحيى البكاء سمعت ابن عمر يقول لزافع: اتق الله، ويحك، لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس، كما أحل الصرف، وأسلم ابنه صيرفيًا. البكاء واهٍ وقد علق بل هو متزوك اتفقوا على ضعفه ومن المحال

كما قال ابن حبان أن يجرح العدل بكلام المتروك.

كما نقل عن ابن حبان أن أهل الحجاز يطلقون "كذب" في موضع "أخطأ" ويفيد ذلك إطلاق عبادة بن الصامت قوله كذب أبو محمد لما أخبر أنه يقول "الوتر واجب" فإن أباً محمد لم يقله رواية وإنما قاله اجتهاداً والمجتهد لا يقال له: إنه كذب، وإنما يقال: إنه أخطأ.

والسبب في هذا الغبار الذي لم يثبت ولم يرتفق إلى درجة تضليل عكرمة هو رأيه المتبع لرأي الخوارج في موضوع الإمامة.

ولذلك نرى كثيراً من الثقات أخذوا عنه، منهم إبراهيم النخعي، والشعبي وعمرو بن دينار وقتادة، وأبو صالح مولى أم هانئ وكثير من خيار التابعين.

وأورد الذهبي كثيراً من الأخبار عن كثير من الثقات في تعديله فقد حدث ابن فضيل عن عثمان بن حكيم قال: كنت جالساً مع أبي أمامة ابن سهل إذ جاء عكرمة فقال: يا أبا أمامة أذكرك الله: هل سمعت ابن عباس يقول: ما حدثكم عن عكرمة فصدقوه فإنه لم يكذب على فقال أبو إمام: نعم.

وقال حماد بن زيد: قيل لأبيه: أكنتم تتهمنون عكرمة؟ قال: أما أنا فلم أكن أتهمه.

عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت قال: مر عكرمة بعطاء وسعيد ابن جبير يحدثهم، فلما قام، قلت لهم: ما تتكلمان مما حدث شيئاً؟ قالا: لا وعن شيبان عن أبي اسحاق: سمعت سعيد بن جبير يقول: أنتم لتحدثون عن عكرمة بأحاديث لو كنت عنده ما حدث بها. قال: فجاء عكرمة، فحدث بتلك الأحاديث كلها، والقوم سكت، فتكلم سعيد، ثم قام عكرمة فقالوا: يا أبا عبد الله ما شأنك؟ قال: فعقد ثلاثة وقال: أصاب الحديث قال أبوبكر: قال عكرمة: أرأيت هؤلاء الذين يكذبوني من خلفي، أفلًا يكذبوني في وجهي.

وروى أحمد بن منصور المروزي، عن أحمد بن زهير قال: عكرمة أثبت الناس فيما روى، ولم يحدث عن أقرانه، أكثر حديثه عن الصحابة.

قال أبو بكر المروزي: قلت لأحمد: يُحتج بحديث عكرمة؟ قال: نعم يُحتج به.

قال: كلاماً، ولم يختبر، قلت: فعكرمة أحب إليك في ابن عباس أم عبيد الله؟ فقال: ثقة وثقة.

وروى جعفر بن أبي عثمان الطيالسي، عن يحيى بن معين قال: إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة، وفي حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام حتى تهمه أنه حروم (من الخوارج)، برأ منها كبار المحدثين. فهذا هو أحمد العجمي

يقول عن عكرمة: مكي، تابعي، ثقة، برئ مما يرميه به الناس من الحرورية يعني من رأيهم، وقال الحافظ بن حجر وهو يرد عن عكرمة ما أ指控 به: لم يثبت من وجهه قاطع أنه كان يرى ذلك، وإنما كان يوافق في بعض المسائل، فنسبوه إليهم وقد برأه أحمد العجلي من ذلك فقال في كتاب "الثقات" له: عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما مكي، تابعي، ثقة، برئ مما يرميه الناس به من الحرورية.

كما نقل محقق كتاب سير أعلام النبلاء في حاشية عن ابن منزة قوله في صحيحه "واما حال عكرمة في نفسه فقد عدله أمة من نبلاء التابعين فمن بعدهم، وحدثوا عنه، واحتجوا بمفاريده في الصفات والسنن والأحكام، روى عنه زهاء ثلاثة رجال من البلدان منهم زيادة على سبعين رجلا من خيار التابعين ورفاعتهم. وهذه منزلة لا تكاد توجد للكثير من التابعين، على أن من جرمه من الأئمة لم يمسك من الرواية عنه، ولم يستفروا عن حديثه، وكان يتلقى حديثه بالقبول، ويحتاج به قرناً بعد قرن، وأماماً بعد إمام إلى وقت الأئمة الأربع الذين أخرجوا الصحيح، وميزوا ثابته من سقيمه، وخطأه من صوابه، وأخرجوا رواياته وهم: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي، فأجمعوا على إخراج حديثه واحتجوا به، على أن سلماً كان أسوأهم رأيا فيه وقد أفرج عنه مقروناً وعدله بعدهما جرمه".

ولئن كنا قد استعرضنا هذه الصفحات في اثبات العدالة والضبط لعكرمة مولى ابن عباس وانتهينا إلى هذه النتيجة التي يظهر فيها أن الحديث حديث حسن صحيح فلا يفيد الطعن فيه، ولكننا نفهم هذا الحديث - على صحته - من عدة وجوه:
الوجه الأول: إن جمهور الصحابة لم يفهموا من الحديث قتل المرتد في الحال بمجرد ردهه رغم وضوح النص على ذلك.

وقد قال الحافظ ابن حجر " واستدل ابن القصار لقول الجمهور بالإجماع - يعني السكتي - لأن عمر كتب في أمر المرتد: هلا حبسته ثلاثة أيام واطعمته في كل يوم رغيفاً لعله يتوب فيتوب الله عليه؟ قال: ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة كأنهم فهموا من قوله صلى الله عليه وسلم "من بدل دينه فاقتلوه" أي أن لم يرجع؛ وقد قال تعالى "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم".

وفي ضوء هذا الإجماع على عدم التسرع في القتل للمرتد قبل استتابته فإننا نرى ضرورة إجراء الحوار مع من تثبت ردهه بإنكار أصل من أصول الدين وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر أو إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة كإنكار وجوب الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج أو استحلال أمر مجمع على حرمتة كاعتقاد إباحة الخمر أو تكذيب الله أو رسوله صراحة، لأنه ربما تطراً عوامل الوسوسه أو الجهل أو الاضطراب الفكري أو النفسي فتقوم الشبهات في عقل أحد فلا بد أن تهيأ الفرصة الكاملة لمعرفة الدوافع التي دفعته إلى الردة واستئصالها من نفسه وكشف الشبهات الواردة على ذهنه. وكم من إنسان أحاطت الشبهات به فاوْفعته في براثن الشك والإلحاح فلما تهيات ظروف مغايرة أزيلت الشبهات من عقله وصار من أخلص الناس إيماناً وأرسخ لهم عقيدة.

وقلب الإنسان، كل إنسان قلب، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن" وما سمي القلب قلب إلا لتقلبه وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن المرء قد يمسي مؤمناً ويصبح كافراً وقد يصبح مؤمناً ويمسى كافراً وكان عليه الصلاة والسلام يدعوا "اللهم ثبت قلبي على دينك".

فها هو حجة الإسلام الفزالي يخرج حاله من الشك إلى اليقين بنور يقذفه الله في قلبه، وهام كثيرون في عصرنا قد أعتبرتهم موجات من الشك حيناً بل الإلحاد أحياناً ثم انتهى بهم الأمر إلى سكينة الإيمان وقرار اليقين فلو عاجلنا كل مرتد أو شاك، لأغلقنا بباب الرحمة قد يدخل منه كثير من الناسك التائبين.

الوجه الثاني: إلى متى هذا الحوار، وما مدى هذه الاستتابة؟
وهنا نجد أن أئمة الإسلام لم يتفقوا على مدى معين تتوقف عنده الاستتابة وقد نقل
الحافظ ابن حجر أيضاً الخلاف في ذلك فقال:

"اختلف القائلون بالاستابة هل يكتفى بالمرة أو لابد من ثلاثة؟ وهل الثالث في مجلس؟ أو في يوم؟ أو في ثلاثة أيام؟ وعن على يستتاب شهرا، وعن النخعي يستتاب أبداً كذا نقل عنه مطلقاً. والتحقيق انه في من تكررت منه الردة".

ولم يبين الحافظ ابن حجر ولا غيره فيما نعلم الأساس الذي بنى عليه كل من هؤلاء رؤيته في هذه المدة. فلا نعلم على أي أساس رأى عمر رضي الله عنه ثلاثة أيام وحبسه فيهما؟ (ولنا أن نسأل هل في جو الحبس وما يحيط به من ضغوط نفسية خاصة وإذا اقتصر غذاؤه على رغيف عقابا له يمكن أن يصل به إلى إزالة الشبهة العالقة بذهنه مع أن المقصود هو إزالة الشبهة؟ وهل كانت ثمة شبهة؟ أو كانت حالة خاصة؟)

وإذا كان الأمر كذلك متسعًا للأراء واختلاف التقدير حيث لم ينقل نص محدد ولا إجماع فإننا نرى في هذا العصر قد تكاثرت فيه الفتنة وفيه تتصارع الثقافات وقد اشتدت وتنوعت الحملات على الإسلام تشوّه سماحته وصورته وتصفه بالإرهاب والعنف بحيث لم يعد يعقل صورة الإسلام الحقة إلا المؤمنون الخالص العارفون بأسرار شريعة ومقاصده، التي تتحقق بها المصالح. فإنه من حسن التقدير وسط هذا كله أن نأخذ بتقدير النخعي فهو أنساب وأنفع له فلا يقتل المرتد انتظاراً لتوبيه واستمراراً وتواصلاً معه وعدم اليأس من أوبته إلى رحاب الإيمان، فإنه كما قال تعالى "إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" وروح الله: رحمته. قد يقال هنا إن الأخذ برأي النخعي قد يعطّل إقامة الحجّ ونقول لها: إذا

وأنه مفتى الكوفة هو والشعبي في زمانهما.

رسـ روى الذهبـي عن شـعـيب بن الحـبـحـاب قالـ كـنـتـ فـيـمـ دـفـنـ إـبـرـاهـيمـ النـخـعـيـ لـيـلـاـ سـابـعـ سـبـعـةـ أـوـ تـاسـعـ تـسـعـةـ فـقـالـ الشـعـبـيـ أـدـفـتـمـ صـاحـبـكـ؟ـ قـلـتـ نـعـمـ قـالـ أـمـاـ إـنـهـ مـاـ تـرـكـ أـحـدـاـ أـعـلـمـ مـنـهـ،ـ أـوـ أـفـقـهـ مـنـهـ،ـ قـلـتـ وـلـاـ الـحـسـنـ وـلـاـ اـبـنـ سـيـرـينـ؟ـ قـالـ نـعـمـ،ـ وـلـاـ مـنـ أـهـلـ الـبـصـرـةـ،ـ وـلـاـ مـنـ أـهـلـ الـكـوـفـةـ،ـ وـلـاـ مـنـ أـهـلـ الـزـانـةـ

ولا من أهل الشام وإذا كان هذا الإمام الجليل أفقه أهل زمانه كما حديث عنه زميله الإمام الشعبي فلابد أن تكون له رؤية في التقدير وفهم الحديث وما يترتب على هذا الفهم والتقدير مما يتمشى مع ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم من أن تنفيذ الحديث مشروط بعدم التوبية. ونرى أن هذه الرؤية في استتابة المرتد أبداً تفتح آفاق التوبة وإعادة النظر وهو ما يتمشى أيضاً مع ما ذكره الحافظ ابن حجر من أن الذي رأى المبادرة بقتل المرتد في الحال دون الاستتابة هو رأي ضعيف (حکاه بصيغة التحرير) قيل، ونسبة إلى أفراد (الحسن وطاووس ونقله ابن المنذر عن معاذ وعبيد بن عمير).

الوجه الثالث: أنه إذا كان الصحابة أجمعوا على أن المرتد لا يقتل إلا بعد الاستتابة وتعددت وجهات أنظارهم في مدة الاستتابة ومداها بين قائل ثلاثة أيام إلى قائل شهراً إلى قائل بالاستتابة أبداً ومن قائل بالاستتابة مرة إلى قائل بثلاث ومن قائل في مجلس أو يوم أو ثلاثة أيام مما ليس معه نص قاطع وأنه إذا كان الأمر هكذا متربوكاً للتقدير فإنه يترك في عصرنا لتقدير الإمام ولـي الأمر حسب ما يراه من السياسة الشرعية التي تضع في حسابها مقاصد الشريعة وما تقتضيه من صيانة ثوابت الأمة وحماية المصالح العليا للجماعة الإسلامية.

ولعل هذا المعنى هو الذي المح إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما عن مسروق عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث. النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة) (البخاري ٢٤٧/١٢) كتاب الديات، باب ٦، مسلم ١٣٠٢٢ كتاب القسامية باب ما يباح به دم المسلم).

فالمفارق لدينه إن اقتصر في المفارقة لدينه على نفسه وكتم سره بينه وبين ربه واستخدم حريته في إطار شخصه، دون إعلان لمفارقة الجماعة دون إضرار بها أو جهر بالهجوم على مبادئ الإسلام وقيمه والتشكيك المتعمد في أصوله، فإن حسابه عند ربه، لكن لا ولادة للجماعة عليه، لأنها ليست مخولة بالشق عن البصدور ولا بالتفتيش عن القلوب، وفحص النوايا.

وتلك دلالة واضحة نراها جلية في أن العقوبة الأخروية مرتبطة بالردة السرية والعقوبة الدنيوية مرتبطة بمفارقة الجماعة والخروج على ثوابتها العقدية، إذ لكل أمة ثوابتها وبمقدار الخروج على هذه الثوابت يقدر العمل على إصلاح هذا الخروج والعودة إلى الثوابت كما تقدر الاستتابة ومداها. ولدينا موقفان في التاريخ الإسلامي يمكن أن يعطيانا مؤشراً لقبول ما نذهب إليه.

الموقف الأول: في صلح الحديبية أصر القرشيون على أن يتضمن الصلح شرطاً يقضي بأنه إذا أسلم واحد من أهل مكة وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليه أن يرده إليهم وإذا ارتد أحد من الذين أسلمو معه ووفد على أهل مكة لا يردوه وقبل عليه الصلاة والسلام ذلك.

وكانت هذه المفارقة مثار قلق في البداية وعدم ارتياح من الصحابة حتى تسأله عمر رضي الله عنه وغيره ألسنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بلـى. قال عمر: علام نعطي الدنيا في ديننا؟ لكن صدور المؤمنين انشرحـت بعد ذلك على ما فهموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن المرتد إذا ترك الجماعة المؤمنة إلى أهل مكة فلا رده الله.

الموقف الثاني: موقف أبي بكر رضي الله عنه وإجماع الصحابة معه من حركة الردة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاورـة عمر رضي الله عنه في البداية وميلـه إلى عدم محاربة المرتدين حتى شرح الله صدره لقتالـهم إذ قال أبو بكر والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلـهم عليه.

(ذلك أن حركة الردة كانت حركة عصيـان جماعـي) تحدث ثلـمة ضخـمة في توازن الجماعة الإسلامية ولا تعرض العقـيدة وحدـها وإنـما تهدـم العقـيدة والعبـادة وثوابـت الجمـاعة. وإذا كنتـ في هذه المقدمة قد أطلـلتـ في بيان مـدى الخـلاف بينـنا في المنـهج في هذه المسـألـة فإنـ الخـلاف في غيرـها من المسـائل أهـونـ من ذلكـ.

فـموقـفـنا منـ الحـسـبـة أنهاـ تحـميـ المجـتمـع وإنـ كـنـاـ نـتفـقـ معـ الكـاتـبـ الفـاضـلـ فيـ أنـ الـبعـضـ لمـ يـسـتـخدـمـهاـ الاستـخدـامـ الأـمـثلـ وإنـماـ اـتـخـذـ منهاـ سـلـاحـاـ رـيـماـ طـالـ الإـسـلـامـ نـفـسـهـ وـشـوـهـ الصـورـةـ عنـ سـماـحتـهـ، إـلاـ أنـ ذـلـكـ لاـ يـقـلـ منـ هـذـهـ الفـريـضـةـ الـكـفـائـيـةـ وـلـاـ منـ دورـهاـ فيـ حـمـاـيـةـ المـجـتمـعـ المـسـلـمـ كـمـاـ أـنـ، مـوـقـفـ الكـاتـبـ الفـاضـلـ منـ أـنـ أـغـلـبـ سـيـرـتـاـ الـفـكـرـيـةـ، كـمـاـ قـالـ كـانـ حـجـراـ عـلـىـ الـفـكـرـ، فـإـنـاـ لـاـ نـشـارـكـهـ هـذـاـ الرـأـيـ وـلـاـ مـاـ قـامـتـ حـضـارـةـ شـامـخـةـ مـتـعـدـدـةـ الـجـوـانـبـ وـالـأـفـاقـ كـحـضـارـةـ الإـسـلـامـ لـأـنـ حـضـارـةـ رـائـعـةـ كـهـذـهـ الـحـضـارـةـ الـتـيـ شـمـلـتـ أـغـلـبـ الـعـالـمـ فيـ زـمـانـهـ لـمـ تـكـنـ لـقـوـمـ لـوـ كـانـ هـنـاكـ حـجـرـ عـلـىـ الـفـكـرـ، إـنـماـ تـقـومـ باـزـهـارـ الـفـكـرـ الـحـرـ وـتـعدـ آـفـاقـهـ وـجـوـانـبـهـ.

وـمـنـ يـطـالـ التـرـاثـ الإـسـلـامـيـ لـاـ تـخـفيـ عـلـيـهـ التـعـدـديـةـ الـتـيـ تمـثـلـ سـمـةـ أـسـاسـيـةـ لـهـذـاـ التـرـاثـ سـوـاءـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ أوـ فـيـ الـأـصـوـلـ أوـ فـيـ الـفـقـهـ أوـ الـأـفـهـامـ الـعـدـيدـةـ فـيـ التـقـسـيرـ وـالـحـدـيـثـ بـحـثـ يـسـوـغـ لـنـاـ اـنـ نـقـولـ أـنـ لـاـ تـوـجـدـ تـعـدـديـةـ يـشـمـلـهـاـ إـطـارـ وـاحـدـ كـمـاـ تـوـجـدـ فـيـ التـرـاثـ الإـسـلـامـيـ وـالـحـضـارـةـ الإـسـلـامـيـةـ.

وـمـعـ ذـلـكـ كـلـهـ.. لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـشـفـلـنـاـ الـخـلـافـ معـ الكـاتـبـ فـيـ هـذـهـ الـجـوـانـبـ ؟ـ كـتابـهـ عـنـ الـجـوـانـبـ الـأـخـرـىـ الإـيجـابـيـةـ الـتـيـ تـسـتـحـقـ الإـشـادـةـ خـاصـةـ دـعـوتـهـ الصـادـقـةـ إـلـىـ ضـرـورةـ الـحـوارـ وـالـتـسـامـحـ وـأـنـ يـقـبـلـ بـعـضـنـاـ بـعـضاـ وـيـعـذرـ بـعـضـنـاـ بـعـضاـ، لـاـ سـيـماـ إـذـاـ كـانـ هـذـاـ الـحـوارـ وـالـتـسـامـحـ وـلـوـ تـحـقـقـتـ هـذـهـ الدـعـوـةـ الـتـيـ نـعـمـلـ لـهـاـ جـمـيـعـاـ لـكـانـ لـنـاـ أـنـ نـأـمـلـ فـيـ مـسـتـقـبـلـ مـشـرقـ، تـكـونـ

أـ.ـ دـ.ـ عبدـ المعـطـيـ بـيـومـيـ
عمـيدـ كـلـيـةـ أـصـوـلـ الـدـيـنـ
جـامـعـةـ الـأـزـهـرـ

يهدف هذا الكتاب في المقام الأول إلى أن يكشف بشكل منهجي وواضح صفحات من تاريخ الاضطهاد الفكري في تاريخنا ، ولقد كان الدافع الأساسي للجهد الذي قمت به في هذه الصفحات ، أن أعرض بشئ من التبسيط والوضوح لوقائع هذا التاريخ من الملاحة للمفكرين ، التي أرى أنها وراء عدم قدرتنا على التفكير بجسارة في قضيائنا الهامة ، والتي أرى أنها سبب رئيسي في شل قدرتنا على التفكير الموضوعي ، وكان من دوافعي لتأليف الكتاب أنني وجدت كثيرا من الشباب ، لا يعرفون عنها شيئا ، على الرغم من أنها توجد متباشرة في بطون الكتب . بل كان هناك حتى بعض المثقفين الذين أبدوا دهشتهم من وجود بعض هذه الحالات من الاضطهاد . ولعل السبب في مثل هذا الجهل بهذه المعلومات ، أنه قد جرت في تاريخنا على امتداده محاولات دؤوبة لطمس معالم مثل هذه الأحداث ، لذا فقد كان الجهد الذي قمت به لجمع شتات مثل هذه الأحداث كبير على الرغم من صغر حجم كتابنا هذا ، وهو جهد على الرغم من حرصنا على أن يكون موضوعيا قدر الطاقة ، إلا أنه قد يشوه قصور في بعض الأحيان ناتجا عن قلة المادة المتوافرة عن هذه الموضوعات ، للسبب الذي ذكرناه ، حيث تجد أن كتب التاريخ تسكت عنها في كثير من الأحيان ، أو تعرضها بتحيز واضح في بعض الأحيان .

ولم نشا أن نناقش مختلف وجهات النظر في بسط هذه القضايا وعرضها ، بل كان ما وضعته نصب عيني من البداية أن أستفيد منها جميعا على الرغم من تباين نظرتها ، ودون أن ندخل معها في نقاشات من شأنها أن تشتبه انتباه القارئ عن تسلسل الأحداث ، مما قد يصرفه عن المغزى الرئيسي لها .

وهدفتنا أيضا من عرضنا لهذه الصفحات من التعرض للمفكرين بالأذى ، أن نرد على بعض من يصورون تاريخنا على أنه خال من مثل هذه المشاكل التي واجهت الفكر والمفكرين ، مضفيين على التاريخ نوعا من الرومانسية في الفهم ، كثيرا ما أضللت الكثيرين وعلى رأسهم الشباب ، فعرضنا الأحداث كما وقعت في الواقع ، وعملنا على

أن نقدم هذه الأحداث كما جرت دون زيادة أو نقصان ، مركزين بطبيعة الحال على
ما هو جوهرى .

ولا شك أننا في حاجة إلى كشف تاريخنا بمنظار العلم الموضوعي ، حتى نتمكن
من فهم الماضي ونساعد في فهم الحاضر معًا ، وأن نعرض وقائع هذا التاريخ
بموضوعية ، مهما كانت مؤلمة ، لأن ذلك من شأنه أن يمكننا من كشف مثالب حاضرنا
وماضينا ، ليحدد خطانا على الطريق الصحيح نحو المستقبل .

ويمكنا القول أن ما نعرضه هو محاولة لطرح مثل هذا الماضي للمناقشة ، فإن
نجحت هذه الصفحات كما نتمنى لها في أن تفتح مثل هذا النقاش ، فإنها تكون بذلك
قد حققت هدفها كبيرا . ومانرجوه هو المناقشة الموضوعية ، التي لا تسعى للبحث عن
العيوب بقدر ما تناقض الامور بموضوعية ، في إيمان واع بأن الاختلاف طريق
الوصول للحقيقة ، دون خوف من استعمال عقولنا ، والتفكير بجسارة في ماضينا
وحاضرنا .

فإن أثارت مثل هذه الصفحات حفيظة البعض ، فإن ما نهدف إليه هو تبيان
الحقيقة قدر المعطيات المتوافرة ، وحسبنا أنها اجتهاد ومسعى للفهم ، في غابة من
عمليات الطمس والتعمية ، فإن كان هناك من يصوّبها ، فلا خلاف في حقه في ذلك ،
شرطه أن يكون اختلافه إعمالاً للعقل والمنهج العلمي الموضوعي ، دون أن يشهر في
وجوهنا الجمل الإنسانية والاتهامات الباطلة ، التي لن تجدي شيئاً في الوصول إلى
الصواب والصدق .

ولعل هذه الصفحات تتبع في كشف الأسباب في خوفنا من التفكير الحر ، الذي
لا يخشى في الحق لومة لائم ، فمثل هذا الخوف له ما يبرره بالفعل ، حيث كان المفكر
في الماضي بل والحاضر كما سيتضح من قراءة هذا الكتاب ، هدفاً من يفترش في
ضميره ، ومن يعمل على تحريض العامة عليه ، بل ومن يستعدّي عليه القضاء والقانون
أو من يحاكمه تعسفاً بقوانين جائرة ، ومن يطارده مباشرةً احتساباً دون قضاء أو
قانون ، بل وفي خروج واضح على القانون ، ومن يعتدي على حياته أو ماله أو يتعرّض
به ويسبب له من المضايقات ما يجعل الحياة بالنسبة له صعبة إن لم تكن مستحيلة .

ومثقفينا ، فهي أسباب تضرب بجذورها في ماضينا ، وتمتد لحاضرنا ، ومنذ أن
حاولت هذه الأمة أن تنهض ، كان أعلام نهضتها دوماً هدفاً للتکفير والتخويف
والطاردة والملاحقة والاتهام بالزنقة والماسونية والتفرير ، والتبغية الفكرية ، وليس
بعيد عننا معارك الإمام محمد عبده ومنصور فهمي وطه حسين وغيرهم ، مما كانوا
 وما زالوا هدفاً مثل هذه الاتهامات .

إن أمة يحكمها الخوف لن تكون قادرة على الاستمرار في نهضتها ، لأن النهضة عمل يستلزم شجاعة الفكر ، التي تعد الأساس لشجاعة القرار وموضوعيته وقابليته للتطبيق ، والسؤال الآن هل نجرؤ على أن نفكر بجسارة ، وأن نكفل للمفكرين والناس عامة حقهم في الاعتقاد ، دون خوف ، وهل نكفل لهم حقهم في الحياة ، وألا يفقد أحد حياته ثمناً لفكرة !

حرية الاعتقاد هي الشرط الأول للمعرفة ولانتشارها ومن ثم فإن تقدم العلوم مرتبط بالقدر الذي يكفله المجتمع لأفراده من حرية الاعتقاد والضمير والتعبير.

وتتطوّي عملية التكفير على اعتداء صارخ على حقوق الإنسان وتشكل جزءاً من عملية أكبر للاعتداء على حقوق الأفراد في مجتمعاتنا النامية التي تغلب الحقوق المجتمعية على الحقوق الفردية ، ولا تقل حماية حقوق الإنسان في الاعتقاد والتعبير في الاهمية عن حماية بدنـه وحمايـة ملكـيـته فالإنسان بلا اعتقاد يفقد مكونـاً رئيـسـياً في مقومـات شخصـيـته وحيـاته التي يستـبيـحـها المـكـفـرون باـهـدـارـ حـقـهـ فيـ الحـيـاةـ . وزـعمـ الـوصـاـيـةـ عـلـىـ اـعـتـقـادـ الإـنـسـانـ اـعـتـدـاءـ صـارـخـ عـلـىـ جـمـيعـ حـقـوقـ الـفـرـدـ وـلـايـمـلـكـ مـنـ يـقـومـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـوـصـاـيـةـ الـحـقـ فـيـهاـ شـرـعاـ وـقـانـونـاـ .

وتبيـنـ الصـفـحـاتـ التـالـيـةـ إـلـىـ أيـ مـدىـ تـعـرـضـ الـفـكـرـ فـيـ مجـتمـعـنـاـ لـلاـضـطـهـادـ فـيـ عـدـةـ عـصـورـ وـتـسـعـيـ لـلـكـشـفـ عـمـاـ يـكـمـنـ وـرـاءـ مـثـلـ هـذـاـ الـاضـطـهـادـ مـنـ عـوـافـلـ فـيـ الـوـاقـعـ ،ـ وكـيفـ انـ هـذـاـ الـاضـطـهـادـ طـالـ مـفـكـرـينـ كـبـارـاـ ،ـ كـمـ آـنـهـ شـمـلـ أـيـضاـ بـعـضـاـ مـنـ أـهـمـ الـفـقـهـاءـ فـيـ تـارـيـخـنـاـ وـمـنـ بـيـنـهـمـ عـلـىـ سـبـيلـ الـمـثالـ الـأـمـامـيـنـ اـبـنـ حـنـبـلـ وـالـطـبـرـيـ وـكـيفـ أـنـ الـاضـطـهـادـ أـدـىـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـأـحـيـانـ إـلـىـ حـجـبـ الـتـعـاـمـلـ مـعـ بـعـضـ الـعـلـومـ وـمـنـ بـيـنـهـاـ الـفـلـسـفـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـشـمـلـ مـعـظـمـ الـعـلـومـ فـيـ هـذـهـ الـعـصـورـ .

ولـمـ نـكـنـ وـحدـنـاـ فـيـ هـذـاـ الـاضـطـهـادـ لـلـفـكـرـ فـيـ الـعـصـورـ الـوـسـطـىـ ،ـ فـقـدـ كـانـتـ هـذـهـ سـمـةـ غـالـبـةـ عـلـىـ تـلـكـ الـعـصـورـ ،ـ وـلـاـ يـخـتـلـفـ غـيـرـنـاـ عـنـاـ فـيـ ذـلـكـ سـوـيـ فـيـ أـنـهـمـ كـانـ لـدـيـهـمـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ الـاستـفـادـةـ مـنـ قـرـاءـ الـتـارـيـخـ أـمـاـ نـحـنـ فـإـنـ اـسـتـفـادـتـنـاـ كـانـتـ أـبـطـأـ إـيـقـاعـاـ ،ـ كـمـ أـنـهـمـ كـانـواـ أـيـضاـ أـكـثـرـ مـنـ قـدـرـةـ عـلـىـ الـاستـفـادـةـ مـنـ تـارـيـخـنـاـ وـتـارـيـخـهـمـ وـتـارـيـخـ غـيـرـنـاـ ،ـ فـقـدـ شـهـدـتـ أـورـيـاـ وـغـيـرـهـاـ عـمـلـيـاتـ اـضـطـهـادـ لـلـمـفـكـرـينـ لـكـنـهـاـ تـمـكـنـتـ مـنـ وـقـفـ نـزـيفـ الـفـكـرـ فـيـهـاـ .

وـاتـخـذـتـ الـاجـرـاءـاتـ الـرـامـيـةـ لـحـقـوقـ الـمـفـكـرـ فـيـ الـاعـتـقـادـ وـالـحـيـاةـ شـكـلاـ مـنـظـماـ تـمـثـلـ فـيـ حـقـوقـ الـإـنـسـانـ ،ـ تـلـكـ الـحـقـوقـ الـتـيـ نـصـتـ عـلـيـهـاـ قـوـانـينـ مـكـتـوـبـةـ مـشـفـوـعـةـ بـالـاجـرـاءـاتـ وـالـالـلـيـاتـ الـتـيـ تـتـبـعـ فـيـ تـنـفـيـذـهـاـ ،ـ تـلـكـ الـعـمـلـيـةـ الـتـيـ لـمـ تـتـرـسـخـ فـيـ مجـتمـعـنـاـ حـتـىـ الانـ ،ـ وـالـتـيـ لـمـ تـعـرـفـهـاـ مجـتمـعـاتـنـاـ الـقـدـيمـةـ ،ـ وـوـجـودـ مـثـلـ هـذـاـ الـقـوـانـينـ وـالـالـلـيـاتـ الـتـيـ تـكـفـلـ تـنـفـيـذـهـاـ أـمـرـ مـخـتـلـفـ بـطـبـيـعـةـ الـحـالـ عـنـ مـطـالـبـهـاـ هـذـاـ الـمـفـكـرـ أوـ ذـاكـ بـحـرـيـةـ الـتـفـكـيرـ أوـ